شمائل الرسول

للإمام أبى الفداء إسماعيل بن كثير

٧٠١ ـ ٧٧٤ هـ

قسم التحقيق

بشركة الندى للتجهيزات الفنية

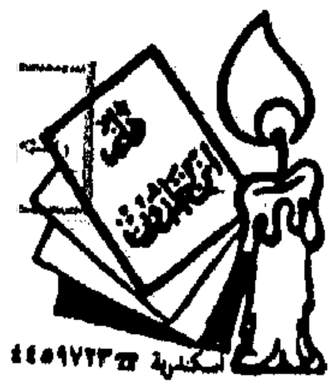

❖ مقدمة ❖

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلق الله ـ ﷺ ـ وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه . . وبعد فالإنسان خلق جاهلاً ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ (النحل: ٧٨) وخلق ضعيفا ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء: ٢٨) والقراءة طريق المعرفة فالإنسان يجب أن يتزود منها بصدق وإيمان

إذا مر بى يوم ولم أدخر يداً ولم أستفد علما فما ذاك من عمرى

ومما يدعو للعجب والاستغراب تزوير التاريخ وضياع معروف وحق الإسلام والمسلمين على العالم أجمع . . ولكن هذا يرجع لتأخر المسلمين وتخليهم عنه ولا مكان للمراء فى أن ما أصابهم من استعمار و . . ثم الآن يتنكر له والحل ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد: ١١) وعندنا كتاب ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤٢) ويقول عنه ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ (الأنعام ٣٨) ثم هدى المصطفى ﷺ « **تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا كتاب الله وسنتى** » . . « **وخيركم من تعلم العلم وعلمه** » .

وأهدف إلى الحفاظ على قيم الإسلام وفضائله وأخلاقياته لا سيما بعد أن ثبت أن الإسلام دين ارتضاه الله لخلقه ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (المائدة: ٣) ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (آل عمران: ٨٥) ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ (بالإسلام) ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ (الأنعام: ١٢٢) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ ﴾ (الإسلام) ﴿ وَبِرَحْمَتِهِ ﴾ (القرآن) ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ (يونس: ٥٧، ٥٨) . . وأرى الطريق الذى سلكته فيه إفادة وتجديد وسيتيح الفرصة بالنفع ـ إن شاء الله ـ مستمداً العون والتوفيق من الله راجياً منه سبحانه أن يتقبله بقبول حسن وينفع كل من يقرأه إنه على ما يشاء قدير وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وآمل من إخواننا وأساتذتنا أن ينقدوه ليتحقق الأمل والرجاء منه لنصلح الخطأ ونكمل النقص ونصل إلى ما يرضى الله

ورسوله ، فخير الناس من أهدى إلىّ عيوبى

فهذا كتاب شمائل الرسول ودلائل نبوته وخصائصه للإمام أبى الفداء إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى المتوفى سنة ٧٧٤ هـ وقد رأيت الأمر يدعونى لتهذيبه وتحقيقه ونشره ولقد أدمج ابن كثير فى هذا الكتاب ثلاث صفات وهى :

١ ـ الشمائل :

وهو موضوع اهتم به علماء الإسلام منذ القدم ، فقد كان أحد أغراض كتب الحديث التى تهتم فى المقام الأول بأحوال الرسول العملية فى عبادته وخلقه وهديه ومعاملته ، باعتباره الأسوة الحسنة ، وباعتبار صفاته وأحواله جانبا من جوانب سنته الشريفة . ومن هنا نجد كتب الصحاح والسنن والمسانيد تحوى شمائل الرسول منثورة بين أبواب العبادات والمعاملات والأخلاق والآداب والزهد والرقاق . .

ثم أفرد المحدثون والعلماء موضوع الشمائل بكتب مستقلة ، كما يقول ابن كثير نفسه : « قد صنف الناس فى هذا قديما وحديثا ، كتبا مفردة وغير مفردة ومن أحسن من جمع فى ذلك فأجاد وأفاد الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى ـ رحمه الله ـ، أفرد فى هذا المعنى كتابه المشهور بالشمائل ، ولنا به سماع متصل إليه » فماذا كان صنيع ابن كثير فى هذا الغرض من كتابه ؟

لقد كان تعويله على كتاب شمائل الترمذى فى المقام الأول ، ثم أضاف إليه ما ورد فى كتب الصحاح والمسانيد ، كما قال : « ونحن نورد عيون ما أورده فيه ، ونزيد عليه أشياء مهمة لا يستغنى عنها المحدث والفقيه » .

والحق أن ما أورده ابن كثير فى كتاب الشمائل . . بعد أوفى ما يمكن جمعه فى هذا الغرض إذ إنه لم يترك جانبا مما ورد فى كتب الحديث فى شمائل الرسول إلا وذكره . ورتب ذلك فى أبواب دقيقة ، فجهده يتمثل فى الجمع والإحاطة وفى دقة الترتيب وحسنه

٢ ـ دلائل النبوة .

وهى أيضا غرض اهتم به المحدثون والعلماء منذ فجر التدوين ، ففى كتاب الصحاح نجد أبوابا مفردة تجمع بعض معجزات الرسول وتشير إلى دلائل صدقه ، فمن ذلك ما نجده

فى صحيح البخارى فى باب « علامات النبوة فى الإسلام » ثم روايته لبعض المعجزات فى كتاب السيرة من صحيحه ، مثل معجزة انشقاق القمر ونبع الماء وتكثير الطعام وغير ذلك .

وكذلك صنع مسلم بن الحجاج القشيرى فى صحيحه أيضا فى باب « معجزات الرسول » وكذلك ورد فى مسند أحمد أيضا هذه الدلائل منثورة فى مسند كل صحابى .

أما إفراد موضوع دلائل النبوة بالتأليف فقد بدأ قبل ابن كثير أجيال ، ومن أقدم ما وصل إلينا فى ذلك كتب ثلاث :

أ ـ « دلائل النبوة » للإمام أبى نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهانى ، صاحب حلية الأولياء ، المتوفى سنة ٤٣٠ هـ .

وقد طبع مختصر لهذا الكتاب فى حيدر آباد للمرة الثانية سنة ١٣٦٩ ـ ١٩٥٠ .

وفى هذا الكتاب يعرض أبو نعيم لفضائل الرسول ، ثم يتناول ذكره فى الكتب المتقدمة ، ثم يستعرض حياة الرسول ـ صلوات الله عليه ـ مشيرا إلى جانب المعجزة أو حجة التصديق فى كل موقف ، والكتاب تختلط فيه الأخبار الصحيحة بالواهية والمنقطعة ، على عادة جامعى الحديث والأثر .

ب ـ « أعلام النبوة » لأبى الحسن على بن محمد الماوردى الشافعى المتوفى سنة ٥٠٠ هـ ويتميز باعتماده على الحجة العقلية إلى جوار ما ينقله من آثار ، فيعرض حجج المانعين لنبوة محمد من اليهود والنصارى ويرد عليهم بأدلة العقل ، ثم يخلص منها إلى عرض المعجزات ، بادئاً بالمعجز الأكبر وهو القرآن الكريم .

جـ ـ دلائل النبوة للبيهقى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ وهو يعرض للمعجزات الحسية بتفصيل كثير يمتلئ بالأخبار الواهية والمكذوبة .

وقد استعرض ابن كثير هذا التراث الكثير فى موضوع الدلائل ، فأورد ما اطمأن إلى صحته أو أمكن قبوله عنده ، إلا أنه تسامح فى إيراد أخبار واهية يتطرق إليها الشك ، ومنها ما حكم بعض نقاد الحديث بوضعه ، كحديث كلام الضب وشهادته بالرسالة ، وحديث الغزالة ، والحمار ، وغير ذلك .

والحق أن دلائل النبوة القاطعة تغنى عن تصيد الأخبار ورواية ما يصادم العقل ، إلا أن

منهج ابن كثير يقوم دائما على إيراد أكثر المرويات ثم محاكمتها إلى موازين لإسناد ليمكن معرفة حالها ، وبذلك يبرئ ساحته ويخلى تبعته ، وذلك عمل لاريب فى فائدته فى مجال الرواية ، إلا أن الكثيرين فى هذا العصر يضيقون به ، ويودون أن لو أغفله الكاتبون والمؤلفون .

وقد امتاز ابن كثير فى باب دلائل النبوة بنقله عن الإمام ابن تيمية هذا الفصل من كتابه الذى رد فيه على فرق النصارى واليهود ، وذكر فى آخره دلائل النبوة ، ويصف ابن كثير مسلك ابن تيمية فى باب الدلائل أنه « سلك فيها مسالك حسنة صحيحة ، بكلام بليغ يخضع له كل من تأمله وفهمه » .

وقد كان ابن كثير تلميذا لابن تيمية ، فلذلك نقل عنه وأعجب بمسلكه ، وما أقل من كان ينصف ابن تيمية فى تلك الأزمان !

كذلك فقد كتب ابن كثير فصلا موجزاً فى إعجاز القرآن يتميز بأصالة فى التفكير وقوة فى الحجة ، وجعله فى صدر كتاب الدلائل .

ومن هنا فإن ابن كثير قد أتى بجديد فى باب الدلائل ، وكان أعدل منهجاً وأقوم طريقا بين الذين كتبوا فيها .

٣ـ وفى باب الخصائص والفضائل :

ذكر ابن كثير فى أول الكتاب أنه سيفرد باباً للخصائص ، ولكنه لم يصنع ذلك وإن كان قد ذكر أحاديث متفرقة فى بعض ما اختص به رسول الله ـ ﷺ ـ فأما كتاب الفضائل ، فقد اقتصر فيه ابن كثير على مقارنات بين ما أوتى رسولنا ـ صلوات الله عليه ـ وبين ما أوتى الأنبياء قبله .

ويذكر ابن كثير أن الباعث له على عقد هذا الباب أنه وقف على مولد اختصره من سيرة الإمام محمد بن إسحاق ، شيخه أبو المعالى المعروف بابن الزَّملكانى ، حيث ذكر فى آخره شيئا من فضائل رسول الله ، ولم يره استوعب الكلام إلى آخره فسأله بعض أصحابه تكميله وتبويبه وترتيبه وتهذيبه ، والزيادة عليه فنشط لذلك .

كما يذكر أنه سمع من شيخه الإمام الحافظ أبى الحجاج المزى أن أول من تكلم فى هذا

المقام الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى .

ومن هنا فقد كان تعويل ابن كثير فى باب الفضائل أولا على كتاب ابن الزَّملكانى ثم كتاب دلائل النبوة لأبى نعيم الذى قال فى آخر كتابه فى دلائل النبوة وهو فى مجلدات ثلاثة : « الفصل الثالث والثلاثون فى ذكر موازنة الأنبياء فى فضائلهم بفضائل نبينا ومقابلة ما أوتوا من الآيات بما أوتى » .

ثم على كتاب « دلائل النبوة » للفقية أبى محمد عبد الله بن حامد ، الذى يصفه ابن كثير بقوله : « وهو كتاب حافل » ثم على كتاب « المبعث » لهشام بن عمار الذى نقل عنه ابن كثير فصلا بعنوان : « باب ما أعطى رسول الله ـ ﷺ ـ وما أعطى الأنبياء قبله » .

وبهذا يصبح لعمل ابن كثير فى باب الفضائل فضل الجمع والإحاطة ، والنقل عن كتب مفقودة ، مثل ما أصل كتاب « الدلائل » لأبى نعيم ، ودلائل ابن حامد ، « المبعث» لهشام بن عمار .

لأن صفات الرسول ـ ﷺ ـ مهمة لأن نعرفها ؛ لأن هذه الصفات موجودة كبشارات فى الكتاب المقدس (العهد القديم وهو التوراة والعهد الجديد وهو الإنجيل) .

وقد روى هذا الحديث محمد بن إسحاق ، عن الزهرى قال : سمعت رجلا من مزينة يحدث سعيد بن المسيّب أن أبا هريرة حدثهم فذكره ، وعنده : فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لابن صوريا : أنشدك بالله وأذكّرك أيامه عند بنى إسرائيل : هل تعلم أن الله حكم فيمن زنا بعد إحصانه بالرجم فى التوراة ؟ فقال : اللهم نعم . أما والله يا أبا القاسم إنهم يعرفون أنك نبى مرسل ، ولكنهم يحسدونك .

فخرج رسول الله ـ ﷺ ـ فأمر بهما فرجما عند باب مسجده فى بنى تميم عند مالك بن النجار .

قال : ثم كفر بعد ذلك ابن صوريا ، فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ [المائدة : ٤١] .

وقد ورد ذكر عبد الله بن صوريا الأعور فى حديث ابن عُمَير وغيره بروايات صحيحة قد بيناها فى التفسير .

قال حماد بن سلمة : حدثنا ثابت ، عن أنس أن غلاما يهوديا كان يخدم النبى ـ ﷺ ـ ، فمرض فأتاه رسول الله ـ ﷺ ـ يَعوده ، فوجد أباه عند رأسه يقرأ التوراة ، فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ : يا يهودى ، أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى ، هل تجدون فى التوراة نعتى وصفتى ومخرجى ؟ فقال : لا .

فقال الفتى : بلى والله يا رسول الله ، إنا نجد فى التوراة نعتك وصفتك ومخرجك ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .

فقال النبى لأصحابه : أقيموا هذا من عند رأسه ، وَلُّوا أخاكم .

ورواه البيهقى من هذا الوجه بهذا اللفظ .

فالذى يُقطع به من كتاب الله وسنة رسوله ، ومن حيث المعنى ، أن رسول الله ـ ﷺ ـ قد بَشَّرت به الأنبياء قبله ، وأتباع الأنبياء يَعْلمون ذلك ، ولكن أكثرهم يكتمون ذلك ويخفونه .

قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذى يَجدُونَهُ مَكْتُوبًا عندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذى أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ ﴾ ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾ . وقال تعالى ﴿ هَذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

فذكر تعالى بعثته إلى الأميين وأهل الكتاب وسائر الخلق من عربهم وعجمهم ، فكل من بلغه القرآن فهو نذير له .

قال ـ ﷺ ـ : « والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ولا يؤمن بى إلا دخل النار » . رواه مسلم .

وفى الصحيحين : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة » .

وفيها : « بعثت إلى الأسود والأحمر » .

فإخبار محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بأن ذكره موجود فى الكتب المتقدمة ، فيما ورد عنه من الأحاديث الصحيحة كما تقدم ، وهو مع ذلك من أعقل الخلق باتفاق الموافق والمفارق ، يدل على صدقه فى ذلك قطعاً ، لأنه لو لم يكن واثقا بما أخبر به من ذلك ، لكن ذلك من أشد المنفرات عنه ، ولا يقدم على ذلك عاقل ، والفرض أنه من أعقل الخلق حتى عند من يخالفه ، بل هو أعقلهم فى نفس الأمر .

ثم إنه قد انتشرت دعوته فى المشارق والمغارب ، وعمت دولة أمته أقطار الآفاق عموما لم يحصل لأمة من الأمم قبلها ، فلو لم يكن محمد ـ ﷺ ـ نبيا ، لكان ضرره أعظم من كل أحد ، ولو كان كذلك لحذر عنه الأنبياء أشد التحذير ، ولنفروا أممهم منه أشد التنفير ، فإنهم جميعهم قد حذروا من دعاة الضلالة فى كتبهم ، ونهوا أممهم عن اتباعهم والاقتداء بهم ، ونصوا على المسيح الدجال ، الأعور الكذاب ، حتى قد أنذر نوح ـ وهو أول الرسل ـ قومه .

ومعلوم أنه لم ينص نبى من الأنبياء على التحذير من محمد ، ولا التنفير عنه ، ولا الإخبار عنه بشىء خلاف مدحه ، والثناء عليه ، والبشارة بوجوده ، والأمر باتباعه ، والنهى عن مخالفته والخروج عن طاعته .

وقد وجدت البشارات به ـ ﷺ ـ فى الكتب المتقدمة ، وهى أشهر من أن تذكر ، وأكثر من أن تحصر .

وقد قدمنا قبل مولده ـ عليه السلام ـ طرفاً صالحاً من ذلك ، وقررنا فى كتاب التفسير عند الآيات المقتضية لذلك آثاراً كثيرة ، نحن نورد هاهنا شيئاً مما وجد فى كتبهم التى يعترفون بصحتها ، ويتدينون بتلاوتها ، مما جمعه العلماء قديماً وحديثاً ممن آمن منهم ، واطلع على ذلك من كتبهم التى بأيديهم .

ففى السِّفر الأول من التوراة التى بأيديهم فى قصة إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ ما مضمونه وتعريبه : « إن الله أوحى إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ بعدما سلمه من نار النمروذ : أن قم فاسلك الأرض مشارقها ومغاربها لولدك » .

فلما قص ذلك على سارة طمعت أن يكون ذلك لولدها منه ، وحرصت على إبعاد هاجر وولدها ، حتى ذهب بهما الخليل إلى برية الحجاز وجبال فاران ، وظن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن هذه البشارة تكون لولده إسحاق ، حتى أوحى الله إليه ما مضمونه :

« أما ولدك إسحاق فإنه يرزق ذرية عظيمة ، وأما ولدك إسماعيل فإنى باركته وعظمته وكثرت ذريته ، وجعلت من ذريته ماذ ماذ ، يعنى محمداً ـ ﷺ ـ وجعلت فى ذريته اثنى عشر إماما ، وتكون له أمة عظيمة » .

وكذلك بشرت هاجر حين وضعها الخليل عند البيت فعطشت وحزنت على ولدها وجاء الملك فأنبع زمزم ، وأمرها بالاحتفاظ بهذا الولد ، فإنه سيولد له منه عظيم ، له ذرية عدد نجوم السماء .

ومعلوم أنه لم يولد من ذرية إسماعيل ، بل من ذرية آدم ، أعظم قدراً ولا أوسع جاهاً ولا أعلى منزلة ، ولا أجل منصباً ، من محمد ـ ﷺ ـ ، وهو الذى استولت دولة أمته على المشارق والمغارب وحكموا على سائر الأمم .

وهكذا فى قصة إسماعيل من السفر الأول : أن ولد إسماعيل تكون يده على كل الأمم ، وكل الأمم تحت يده وبجميع مساكن إخوته يسكن .

وهذا لم يكن لأحد يصدق على الطائفة إلا لمحمد ـ ﷺ ـ .

وأيضا فى السفر الرابع فى قصة موسى : « أن الله أوحى إلى موسى ـ عليه السلام ـ : أن قل لبنى إسرائيل سأقيم لهم نبيا من أقاربهم مثلك يا موسى ، وأجعل وحيى بفيه وإياه تتبعون » .

وفى السفر الخامس ـ وهو سفر الميعاد : أن موسى ـ عليه السلام ـ خطب بنى إسرائيل فى آخر عمره ـ وذلك فى السنة التاسعة والثلاثين من سِنى التِّيه ـ وذكرهم بأيام الله وأياديه عليهم ، وإحسانه إليهم .

وقال لهم فيما قال : « واعلموا أن الله سيبعث لكم نبيا من أقاربكم مثل ما أرسلنى إليكم ، يأمركم بالمعروف ، وينهاكم عن المنكر ، ويحل لكم الطيبات ، ويحرم عليكم الخبائث ، فمن عصاه فله الخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة » .

وأيضا فى آخر السفر الخامس وهو آخر التوراة التى بأيديهم : « جاء الله من طور سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران ، وظهر من ربوات قُدسه ، عن يمينه نور ، وعن شماله نار ، عليه تجتمع الشعوب » .

أى جاء أمر الله وشرعه من طور سيناء ـ وهو الجبل الذى كلم الله موسى ـ عليه السلام ـ عنده ـ وأشرق من ساعير وهى جبال بيت القدس ـ المحلة التى كان بها عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ واستعلن أى ظهر وعلا أمره من جبال فاران ، وهى جبال الحجاز بلا خلاف ، ولم يكن ذلك إلا على لسان محمد ـ ﷺ ـ .

فذكر تعالى هذه الأماكن الثلاثة على الترتيب الوقوعى ، ذكر مَحلة موسى ، ثم عيسى ، ثم بلد محمد ـ ﷺ ـ . ولما أقسم تعالى بهذه الأماكن الثلاثة ذكر الفاضل أولا ، ثم الأفضل منه ، ثم الأفضل منه ، على قاعدة القسَم فقال تعالى : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ والمراد بها محلة بيت المقدس ، حيث كان عيسى ـ عليه السلام ـ ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ وهو الجبل الذى كلم الله عليه موسى ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾ وهو البلد الذى ابتعث منه محمداً ـ ﷺ ـ .

قاله غير واحد من المفسرين فى تفسير هذه الآيات الكريمات .

وفى زبور داود ـ عليه السلام ـ صفة هذه الأمة بالجهاد والعبادة ، وفيه مثل ضربه لمحمد ـ ﷺ ـ ، بأنه ختام القبة المبنية ، كما ورد به الحديث فى الصحيحين : « **مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى داراً فأكملها إلا موضع لَبِنة ، فجعل الناس يُطيفون بها ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟** » .

ومصداق ذلك أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ .

وفى الزبور صفة محمد ـ ﷺ ـ بأنه ستنبسط نبوته ودعوته وتنفذ كلمته من البحر إلى البحر ، وتأتيه الملوك من سائر الأقطار طائعين بالقرابين والهدايا ، وأنه يخلص المضطر ، ويكشف الضرَّ عن الأمم ، وينقذ الضعيف الذى لا ناصر له ، ويُصلى عليه فى كل وقت ، ويبارك الله عليه فى كل يوم ، ويدوم ذكره إلى الأبد .

وهذا إنما ينطبق على محمد ـ ﷺ ـ .

* * *

وفى صحف شَعيا فى كلام طويل فيه معاتبة لبنى إسرائيل ، وفيه : « فإنى أبعث إليكم وإلى الأمم نبياً أمياً ليس بفظ ولا غليظ القلب ولا سخاب فى الأسواق ، أسدِّده لكل جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، ثم أجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى فى ضميره ، والحكمة معقوله ، والوفاء طبيعته ، والعدل سيرته ، والحق شريعته ، والهدى ملته ، والإسلام دينه ، والقرآن كتابه ، أحمد اسمه ، أهدى به من الضلالة ، وأرفع به بعد الخمالة ، وأجمع به بعد الفُرقة ، وأؤلف به بين القلوب المختلفة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، قرابينهم دماؤهم ، أناجيلهم فى صدورهم ، رهباناً بالليل ، ليوثا بالنهار » ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

وفى الفصل الخامس من كلام شعيا : « يدوس الأمم كدوس البيادر ، وينزل البلاء بمشركى العرب ، وينهزمون قدامه » .

وفى الفصل السادس والعشرين منه : « لتفرح أرض البادية العطشى ، ويعطى أحمد محاسن لبنان ، ويرون جلال الله ببهجته » .

وفى صحف إلياس ـ عليه السلام ـ : « أنه خرج مع جماعة من أصحابه سائحا ، فلما رأى العرب بأرض الحجاز قال لمن معه : انظروا إلى هؤلاء فإنهم هم الذين يملكون حصونكم العظيمة . فقالوا : يا نبى الله فما الذى يكون معبودهم ؟ فقال : يعظمون ربَّ العزة فوق كل رابية عالية » .

ومن صحف حزقيل : « إن عبدى خيرتى أنزل عليه وحيى ، يظهر فى الأمم عدلى ، اخترته واصطفيته لنفَسى ، وأرسلته إلى الأمم بأحكام صادقة » .

ومن كتاب النبوات : « أن نبيًّا من الأنبياء مر بالمدينة فأضافه بنو قريظة والنضير ، فلما رآهم بكى ، فقالوا له : ما الذى يبكيك يا نبى الله ؟ فقال : نبى يبعثه الله من الحرم يخرب دياركم ويسبى حريمكم » .

قال : فأراد اليهود قتله فهرب منهم .

ومن كلام حزقيل ـ عليه السلام ـ : « يقول الله : من قَبْل أن صورتك فى الأحشاء قدَّستك وجعلتك نبيا ، وأرسلتك إلى سائر الأمم » .

وفى صحف شعيا أيضا ، مثل مضروب لمكة شرّفها الله : « افرحى يا عاقر بهذا الولد الذى يهبه لك ربك ، فإن ببركته تتسع لك الأماكن ، وتُثَبت أوتادك فى الأرض وتعلو أبواب مساكنك ، ويأتيك ملوك الأرض عن يمينك وشمالك بالهدايا والتقادم ، وولدك هذا يرث جميع الأمم ويملك سائر المدن والأقاليم ، ولا تخافى ولا تحزنى فما بَقى يلحقك ضيم من عدو أبدا ، وجميع أيام ترمُّلك تنسينها » .

وهذا كله إنما حصل على يدى محمد ـ ﷺ ـ . وإنما المراد بهذه العاقر مكة ثم صارت كما ذكر فى هذا الكلام لا محالة .

ومن أراد من أهل الكتاب أن يَصْرف هذا ويتأوله على بيت المقدس فهذا لا يناسبه من كل وجه والله أعلم .

وفى صحف أرْميا : « كوكبٌ ظهر من الجنوب ، أشعَّته صواعق ، سهامه خوارق ، دُكَّت له الجبال » .

وهذا المراد به محمد ـ ﷺ ـ .

وفى الإنجيل يقول عيسى ـ عليه السلام ـ : إنى مُرْتَق إلى جنات العُلى ، ومرسل إليكم الفارقليط روح الحق يعلمكم كلَّ شىء ، ولم يَقُل شيئا مَن تلقاء نفسه » .

والمراد بالفارقليط محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، وهذا كما تقدم عن عيسى أنه قال : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ .

وهذا باب متسع ، ولو تقصينا جميع ما ذكره الناس لطال هذا الفصل جداً ، وقد أشرنا إلى نُبَذ من ذلك يهتدى بها من نوَّر الله بصيرتَه وهداه إلى صراطه المستقيم ، وأكثر

هذه النصوص يعلمها كثير من علمائهم وأحبارهم ، وهم مع ذلك يتكاتمونها ويُخْفونها .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقى : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، ومحمد بن موسى بن الطُّفيل قالا : حدثنا أبو العباس محمد بن عبيد الله بن أبى داود المنادى ، حدثنا يونس بن محمد المؤدَّب ، حدثنا صالح بن عمر ، حدثنا عاصم بن كُلَيب ، عن أبيه ، عن الغلْبان ابن عاصم قال : كنا جلوساً عند النبى ـ ﷺ ـ ، إذ شخص ببصره إلى رجل فدعاه ، فأقبل رجل من اليهود مجتمع عليه قميص وسراويل ونعلان ، فجعل يقول : يا رسول الله . فجعل رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : أتشهد أنى رسول الله ؟ فجعل لا يقول شيئا إلا قال : يا رسول الله . فيقول : أتشهد أنى رسول ؟ فيأبى .

ولذا أسلم كثير من أهل الكتاب (اليهود والنصارى) لقراءة هذه الأوصاوف كبشارات فى الكتاب المقدس وعلى سبيل المثال :

١ ـ سلمان الفارسى كان عند يهودى وقرأ بعض أوصاف الرسول كخاتم النبوة ويأكل من الهدية ولا يأكل من الصدقة ولما تبين من هذه الصفات أسلم .

٢ ـ عبد الله بن سلام وكان حبراً يهودياً بعد أن قرأ صفاته ـ ﷺ ـ فى التوراة وسأل الرسول ـ ﷺ ـ عن أشياء لا يعلمها إلا نبى وبعدها أسلم .

٣ ـ وصف أم معبد فيه عبر « إذا صَمت فعليه الوقار » أى الهيبة عليه فى حال صمته وسكوته ، « وإذا تكلم سمَا » أى عَلا على الناس ، « وعلاه البهاء » أى فى حال كلامه «حُلْو المنطق فَصل» أى فصيح بليغ ، يفصل الكلام ويبينه ، « لا نزر ولا هذر » أى لا قليل ولا كثير ، « كأن منطقه خرَزات نَظْم » يعنى الذى من حُسنه وبلاغته وفصاحته وبيانه وحلاوة لسانه .

« أبهى الناس وأجمله من بعيد ، وأحلاه وأحسنه من قريب » أى هو مليح من بعيد ومن قريب .

وذكرتْ أنه لا طويل ولا قصير ، بل هو أحسن من هذا ومن هذا ، وذكرت أن أصحابه يعظِّمونه ويخدمونه ويبادرون إلى طاعته ، ، وما ذلك إلا لجلالته عندهم وعظمته فى نفوسهم ومحبتهم له ، وأنه ليس بعابس أى ليس يعبس ، ولا يُفنِّد أحداً أى يهجِّنه

ويستقل عقله ، بل جميل المعاشرة حسن الصحبة ، صاحبه كريم عليه وهو حبيب إليه ـ ﷺ ـ .

كان رسول الله ـ ﷺ ـ فَخْماً مُفَخَّماً يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر أطْوَل من المربوع وأقصر من المشذب ، عظيم الهامة رَجل الشَّعر ، إذا تفرقت عقيصته فَرَق وإلا فلا يجاوز شعره شَحْمة أذنيه ، ذا وَفرة ، أزْهَر اَللون ، واسع الجبين أزَجّ الحواجب سَوابغ فى غير قَرَن ، بينهما عرْق يُدره الغضب ، أقْنَى العرْنين ، له نور يعلوه يَحْسبه من لم يتأمله أشمَّ كثّ اللحية أدْعَج ، سهل الخدين ، ضَلَيع الفَم أشْنَب مُفَلَّج الأسنان ، دقيق المسْربَة ، كأن عنقه جيدُ دُمْيَة فى صفاء يعنى الفضة ، معتدل الخلق ، بادنٌ متماسك ، سَواء البطن والصدر ، عريض الصدر ، بعيد ما بين المنْكبين ضخم الكَرَاديس ، أنْورَ المتجرَّد موصول ما بين اللَّبة والسُّرة بشعر يجرى كالخط ، عارى الثديين والبطن مما سوَى ذلك ، أشْعَر الذراعين والمنكبين وأعالى الصدر طول الزنَّدين رَحْب الراحة سبط القَصَب شَثْن الكفين والقدمين ، سائل الأطراف ، خَمْصان الأخمصين ، مَسيح القدمين يَنْبو عنهما الماء ، إذا زال زال قَلْعا ، يخطو تكفيا ويمشى هَونا ذَريع المشية إذاَ مشى كأنما ينحط من صَبَب وإذا التفت التفت جميعاً ، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جُلُّ نظره الملاحظة ، يَسُوق أصحابه ، ويبدأ من لقيه بالسلام .

وأرجو أن يكون عملنا أصابه النجاح والتوفيق وأن ينفع الله به كل قارئ وباحث ، وجل من لا يسهو ، فالكمال لله وحده .

• **وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين** •

شركة الندى للتجهيزات الفنية

قسم التحقيق